عالم الكتابة القصصية للطفل

تأليف: عبد الباقي يوسف



163

العدد 402 رجب 1431هـ - يوليو 2010م

عالم الكتابة القصصية للطفل



رئيس التحرير

د. عثمان بن محمود الصيني

الرياض - طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي

هاتف: 4778990 - 4779792 فاكس: 4766464

ص.ب 5973 الرياض 11432

المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com - info@arabicmagazine.com



ح المجلة العربية 1431هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
يوسف عبد الباقي
عالم الكتابة القصصية للطفل / عبد الباقي يوسف
الرياض ، 1431هـ
14 ص ، 21 سم

ردمك : 978-603-90151-6-1
1- أدب الأطفال - نقد أ. العنوان
ديوي 810.909282 1431/4187

رقم الإيداع : 1431/4187
ردمك : 978-603-90151-6-1

المحتوى

المحتوى

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

مقدمـــة

الحديـث الطبيعي بين الكبير والصغير هو حديث عقيم لافائدة منه لدى شـريحة جيدة من الناس، ولذلـك نرى الكثيرين يتحاشـون الحديث الجاد أو الهــادف مــع أطفالهم، لأنهم يظنـون بأنه لايزيد علــى أن يكون حديث الطرشــان، وحقيقة الأمر، فبقدر ما يحتاج الصغير إلى حديث الكبار، فإن الكبــار أيضــاً يحتاجون إلى أن يحدثـوا الصغار، ويحتاجـون إلى الإصغاء إليهم أيضاً.

وعمليــة الكتابة للأطفال تحمل الكثير من الحساسـية بالنسـبة لكاتب الأطفــال، كما أنهــا تتمتع بكثير من الميـزات التي لابـد أن يتمتع بها هذا الشخص الذي شاء أن يوظف قلمه لعالم الطفل.

الكتابــة الموجهة للطفل تحتاج إلى خصائـص ومقومات لابد أن يتمتع بها كاتب قصص الأطفال حتى تكون له معيناً لربط جسـر ذوقي وحســي وأدبي بينه وبين الطفل، إلى جانب ما يتمتع به من موهبة توظيف المخيلة، وموهبة الإبداع الأدبي والفكري.

لا أقـول إن الكتابــة للأطفــال عملية صعبة بشــكل خاص كمــا قد يظن البعض، بل إن الإبداع الأدبي بشتى فروعه وأجناسه عملية تحتاج إلى جهود كبيرة حتى يتم إخراجه من المخيلة إلى عمل مقروء، ثم تحتاج إلى كثير من الجهد حتى يرى هذا الإبداع النور، وهذا يتعلق أيضاً بشخصية الكاتب، فقد نـرى كاتباً يتمتع بموهبة أصيلة، ويتمتع بـذكاء في التواصل عبر توصيل

نتاجــه الأدبي إلى الآخرين، بيد أن شــخصيته لاتترك مجــالاً حتى يحترمه الآخــرون، وحتى يحترموا أدبه، فهو شــخص لايتمتع بحكمــة التوازن، أو بحكمة بناء شخصية ثقافية واجتماعية راقية يكن لها الآخرون الكثير من التقديــر والاحترام، من ناحية أخرى، فهو قد لايقدر نتاجه الأدبي، ويقذفه إلى الناس، وقد يبلغ مرحلة يتوســل فيها من أجل نشــر كتاب له، أو حتى نشــر موضوع في مجلة شديدة البساطة. إنه هنا يهين شخصيته أولاً، ثم إنه يهين موهبته الإبداعية، ومن ثم فإن الناس يشعرون بشيء من الضجر منه كشخص، ومن نتاجه كإبداع.

في حين نرى المبدع الذي يتمتع بشــخصية متوازنة ينتظر طويلاً حتى يقدم إبداعه، أو حتى يقدم أمســية أدبية، أو محاضرة، وهو يشــعر برهبة التواصــل مع الآخرين، وعموماً فإن مثل هذا الشــخص هو شــديد الحياء، وشديد الحساسية تجاه علاقاته بالآخرين، وهو شخص يصمت أكثر مما يتكلــم، ويختفي أكثر مما يظهر، ودومــاً يتلقى الدعوات، بيد أنه يتأنى في تلبيتها، حتى يثق كل الثقة بما انتهى إليه من إبداع جديد.

الفصل الأول

شخصية الطفل

كلمة الطفولة، تعني مرحلة زمنية بالنسـبة لعمر الإنسـان، وهذه المرحلة تختلف مـن منطقة إلى أخرى، ولكن في جميع الأحوال يمكننا اعتبـار أن الطفولة تبدأ مـن الولادة، وتمتد إلى بـدء مرحلة المراهقة، وعند ذاك، يتجاوز الإنسان مرحلة الطفولة ليدخل إلى مرحلة المراهقة. ولكن ثمة سـنوات يسـتقبل فيها الطفل المؤثرات الخارجية أكثر من غيرهـا، ويتفاعل في تلك السـنوات مع الخـارج أكثر من غيرها، وهي سنوات تأسيسية بالنسبة لعمر الطفل، وهي السنوات التي تمتد من الثالثة، وحتى السادسـة، بحيث يسـتطيع المربي أن يوجه الطفل إلى أي سـلوك يشـاء، إنه يشـبه العجينة بيد الخباز، يصنع بها رغيفاً في الإطـار الذي يريد. والإنسـان مهما تقدم في العمـر، فإنه يبقى حاملاً المؤثرات التي اكتسبها في السنوات الثلاث تلك.

اهتم الإنسـان بتوجيه الطفل منذ القدم، ونجد في التراث الإنسـاني أشـكال التربيـة والتوجيه للطفـل، في التراث اليوناني وجه الشـعراء والأدباء بعض نتاجهم إلى الطفل، ومنهم على سبيل المثال: موسخوس، ويوريبيديس، وبيون، وثيوكريتوس.

لقد خاطب بيون الطفل قائلاً:

يابني لاتلجأ إلى الناس دون مبرر

ولا تعتمد على الغير في إنجاز عملك

حاول أن تصنع مزمارك بنفسك

كل شيء يتم بمشيئة الآلهة

أراد بيون أن يعتمد الطفل على نفسه، وهو يشق طريقه في الحياة، وفي الوقت ذاته جعله يشـعر بأن الله يكـون في عون مَن كان في عون نفســه، إنه يدفع الطفل كي يشـعر بالمسؤولية تجاه الحياة، ويعتمد على نفسه.

ونرى في التراث المصري القديم أشـكال العناية بتوجيه الطفل، ومن ذلك قصيدة نشيد النيل التي تقول للطفل:

هو النيل ينزل من السماء

ويسقي البراري البعيدة عن الماء

وينتج الشعير، وينبت الحنطة

وهو سيد الأسماك

وهو الذي يحدد للمعابد أعيادها

كمـا اهتمت الإمبراطورية الفارسـية بـأدب الطفـل، وتركت تراثاً جيـداً، ومن ذلـك ما ورد في كتاب(أصل الخليقـة) حيث يجيب الطفل الذي يسأل عن الزمان قائلاً:

الزمان من كلا المخلوقين أقوى

الزمان من كل متملك أملك

الزمان من كل ذي علم أعلم

زماننا يمضي ويتفرق

لايمكن للروح أن تتخلى عن الجسد

ولا حين تطير في الأعالي.

كمـا خاطبت حضـارة وادي الرافدين الطفـل في ملحمة جلجامش وهي تقول له:

من سلك سبيل العدوان واغتصبت يده ما ليس له

من نظر نظرة رضا إلى مواطن الشر

من بدّل الوزن الكبير بالوزن الصغير

من أكل ما ليس له ولم يقل ماحدث

فسوف يعاقب على جرائمه.

ونجد في التراث الشعري العربي أشكال الكتابة للطفل، حتى أن كبار الشـعراء خصوا بعض قصائدهم للطفل، وقد لفتت لعبة (الزحلوقة) التي يلعب بها الأطفال نظر امرئ القيس، فكتب يقول:

لمـــن زحـــلـــوقـــة زل

بـــهـــا الـــعـــيـــنـــان تنهل

يـــنـــادي الآخـــــر الأول

ألا حـــلـــوا.. ألا حطوا

وفي معلقتـه يقـول عمرو بـن كلثوم رافعـاً معنويـات الأطفال في مجتمعه:

ألا أبلغ بني الطماح عنا

ودعمياً فكيف وجدتمونا

إذا ما الملك سام الناس خسفاً

أبينا أن نقر الــذل فينا

ملأنا الــبر حتى ضــاق عنا

ومــاء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الفطام لنا صبي

تخر له الجبابر ساجدينا

يقول الإمام الغــزالي في كتابه إحياء علوم الدين : اعلم أن الطريق في رياضــة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيســة ســاذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قالب لكل ما يملأ به، فإن عوّد الخير وعلمه نشــأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدبوه، وإن عوّد الــشر وأهمل إهمال البهائم شــقي وهلك، وكان الــوزر في رقبة القيم عليه والولي له.

وقــد وردت تعريفات عدة في التراث الإســلامي عن الطفل ومنها ما ورد في الأثر: «الطفل ريحانة من الجنة» بينما يصف معاوية ابنته بــ «تفاحة القلب»، فقد دخل عمرو بن العاص عليه وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه يا أمير المؤمنين ؟

قــال: هذه تفاحة القلب، ثــم أضاف: فوالله ما مــرض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الإخوان إلا هنَّ.

فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنك حببتهن إليّ.

وكان الزبير بن العوام يرقص ولده ويقول:

أزهر من آل بني عتيق

مبارك من ولد الصديق

ألذه كـــمــا ألذ ريــقي

وقد تنبه الأدباء في التراث العربي إلى خصوصية العلاقة بين المرســل والمتلقــي في الأدب، وفي ذلــك يقــول ابــن قتيبــة وهــو يــشرح منهج تقديمه الأدب إلى المتلقي: «ولم أســلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له ســبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولانظرت إلى المتقــدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره»[1].

أما الجاحظ فيرى أن الإفصاح في القول والبيان هو الدليل إلى التأثير على المتلقي.

يقــول في كتابــه البيــان والتبيــين: «وقال مــوسى -صلى اللــه عليه وســلم-: (وأخي هــارون هو أفصح مني لســانا فأرســله معي ردءا يصدقنــي) رغبة منه في غايــة الإفصاح بالحجة لتكــون الأعناق إليه

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة، حققه د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981.

أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع»[1].

ويشرح ابن المقفع منهجه في تقديم الثقافة بإيضاح في مقدمة كتابه كليلة ودمنة[2].

أولت الدول المعاصرة عناية جيدة بمكتبة الأطفال، ففي روسيا انطلقت في بداية القرن العشرين نحو (8000) مكتبة مخصصة لأدب الأطفال تحت إشراف وزارة الثقافة، أما وزارة التربية فقد أطلقت نحو (000 154) مكتبة تحتوي على أدب الأطفال يمكن للطفل أن يقرأ ويستعير الكتاب الذي يشاء.

وفي المجر أولت الدولة بالغ اهتمامها بثقافة الطفل، فصدرت قرارات رسمية لدعم المكتبات الخاصة بالطفل مما أدى إلى زيادة عدد المكتبات من 47 مكتبة سنة 1957 إلى 190 مكتبة سنة 1972، وفي السويد تحظى مكتبات الأطفال بنحو أربعين قسماً خاصاً بالأطفال في المكتبات العامة.

---

(2) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون 7 / 1 ط5، 1985م، مطبعة المدني..

(3) كليلة ودمنة، ابن المقفع، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 2002.

الفصل الثاني

شخصية كاتب الأطفال

يتمتــع كاتب الأطفال بميــزات تميزه عن غيره ســواء من الأدباء، أو مــن بقيــة الناس، فهــو مهما ســعى إلى إعطاء صــورة جادة عن شخصيته من خلال المظهر، إلا أن رائحة الطفولة تفوح منه، ويمكن في أي موقــف تصدر منــه حركة تلقائيــة عفوية كتلقائيــة وعفوية الأطفــال إلى درجة لفــت النظر إلى تلك الحركة، وتســجيل مأخذ عليه إذا كان في مجلس شعبي عام لاأحد فيه يعرفه، أما إذا كان في مجلس أدبي، فإن ذلك يبدو طبيعياً أمام زملائه، أو متذوقي أدبه.

من هنا يمكنني القول بأن كاتب الأطفال الذي يجد نجاحاً وانتشاراً، وقبــولاً لدى كافة شرائح الأطفال، هو شــخص مايــزال يحافظ على فطرية طفولته، ويميل إلى عالم الطفولة أكثر من ميله إلى عالم الكبار، ويعقــد آمالاً على عالــم الطفولة أكثر مما يعقدها عــلى عالم الكبار، وإذا أردتُ أن أقدمــه مــن وجهة أخرى، فأقول هو بالنســبة للتاريخ الأدبــي ذاك الأديــب الذي تفوح رائحة الرومانســية من أدبه حتى لو كتــب عن الحروب إنه شــخص رومانــسي في كل تصرفاته، ومواقفه، وأدبه، فحتى لو بلغ مئة ســنة، يكون بوســعه أن يكتب عن مشــاعر الحب بحرارة وقوة تفوق حرارة وقوة وبراعة شــخص في الخامســة والعشرين من عمره.

إن كاتــب الأطفال المتمكن من الكتابة القصصية بشــكل جيد، هو

شخص يعرف كيف يمارس أبعاد ومزايا طفولته بعداً بعداً، وتفصيلاً تفصيلاً عندما يشرع في كتابة سطور المسودة الأولى لنص أدبي جديد موجه إلى عالم الطفولة.

يمكننــا التعرف على هذه الشــخصية من خلال قراءة ســيرة حياة أشــهر كاتــب للأطفــال وهو الكاتــب الدنماركــي (هانز كريســتيان أندرسون) مؤلف قصة (بائعة أعواد الثقاب) وكذلك قصص: ملابس الامبرطورة الجديدة، والبطيطة الدميمة.

إذن، كاتــب الأطفال هو طفل يرتــدي ثياب الكبار لأن حجمه كبير، طفل بذقن ولحية، طفل هو في الوقت عينه أب، وجد.

إنــه لايمارس هــذه الطفولة مع الآخرين فحســب، أو عندما يشرع في الكتابة، بل يمارســها حتى مع نفســه، لأنه لايتمثل هذه الطفولة عــلى قدر ما هي جزء ثابت في بنيته الســيكولوجية، ويعيش وقائعها كسائر أطفال العالم.

لذلك فهو شــخص ميال إلى محادثــة ومجالس وتجمعات الأطفال، ويمكنني القول: إنه يســمعهم بأذن ثالثــة، وينظر إليهم بعين ثالثة، يسمع ما لايسمعه الآخرون، ويرى ما لايراه الآخرون في عالم وتصرفات الأطفال، وهو شخص يحالفه النجاح كثيراً في عقد علاقات متينة مع الأطفال، ومن ثم لجعل الطفل يروي له في جلسة حميمية ما لايرويه لغيره، حتى لو كان مايرويه بالغ الخطورة، أو الحساسية.

وعلى قدر ما يشــعر براحة وألفة وأنس في مجالسة الأطفال، فإنهم كذلك يشعرون في مجالسته بألفة وأنس وارتياح، ولعل ميل الطفل إلى شــخص كهذا يفوق ميل الكبير إلى عالم الطفل، ذلك أن الطفل يشعر في عمقه أنه بحاجة إلى شــخص كبير يســتوعب تصرفه، ويســتوعب جماليــات مرحلتــه العمرية دون أن يخدشــها، أو يحط من مقدارها بالنسبة لوجهة نظر الطفل، ووفق تصوره وتخيله للأشياء، وهو على مــدارج تلك المرحلــة التكوينية التي يرى فيهــا كل شيء جميلاً وبالغ العذوبــة، وطوع أمره، ولذلك تراه يســتاء وينفر بقــوة عندما لاتلبى رغباتــه أو طلباته التي يفهمها من وجهة نظره بأنها أوامر يصدرها إلى أقرب شــخص كبير إليه، وعليها أن تلقى التنفيذ الفوري والمباشر، وهو جاد كل الجدة في هذه المشــاعر لأنــه ربما يبكي حتى الإغماء إذا اصطدم بممانعة، أو بعدم اســتيعاب، أجل إنه قد ينشــج حتى الموت بسبب قطعة حلوى، وقد يســتغرق في الضحك التلقائي حتى الإغماء بسبب مداعبته للعبة.

يــدرك الطفل في حضرة رجل اســتثنائي كهذا أنه لايتحدث إلى طفل مثلــه، في الوقــت الذي يــدرك فيه أنــه لايتحــدث أيضــاً إلى رجل كبير لايســتوعبه، ينتابه إحســاس في حضرة رجل مجيــد كهذا أنه يتحدث إلى طفــل يكبره في الحجم فقط، إنه يرى طفولة جلية فيه، ويخاطب طفولتــه، فيرى الاســتجابة من تلــك الطفولة، ولذلك تــراه يمازحه،

ويتصرف معه كما لـو أنه يتصرف مع طفل مجايل له. تبلغ بينهما درجـة التفاهم حد أن الطفل يصغـي إليه بجدية، ويرى أنه يمكن أن يدافع عنه في عالم الكبار.

هنا ندرك أننا إزاء شـخص يمكن له بالفعل أن يقدم شـيئاً مجدياً للطفل سـواء من خلال العلاقة المبـاشرة بينهما، أو من خلال الأدب. إننـا لانتردد عنـد ذاك من عقد آمال كبرى على هذا الشـخص، ونضع أطفالنا أمانة بين يديه، وبين ظهراني أدبه.

وحتى في مسـألة صحة الطفـل، فقد تعامل الأطبـاء والعلماء منذ القدم بشيء من الخصوصية والاستثنائية بالنسبة للطفل.

في كتابه (سياسة الصبيان وتدبيرهم) يقول ابن الجزار: «إن معرفة سياسة الصبيان وتدبير صحتهم باب عظيم الخطر جليل القدر، ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين المتطببين كتاباً كاملاً فيه».

نعثـر في كتـب الـتراث على بعـض التوجهـات الصحيـة بخصوص الطفل، ومن ذلك ما كتبه القرطبي حول (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين).

وما كتبه الطبري في كتابه (كناشـة المعالجة البقراطية)، وما ذكره ابـن سـينا في كتابه (القانـون) وبعض ما كتب الـرازي كما في كتابه (رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم)، وابن البلدي.

اكتشـف الإنســان الكتابة حتى يحقق لنفسه من خلالها شيئا من

الترويـح عن النفـس من جهة، وشـيئا من الخلود مـن جهة أخرى، ويمكـن النظر إلى الكتابة أيضاً على أنها تحقق شـيئاً من النرجسـية للكاتب الـذي يظهر من خلالها معالم عبقريته للناس وبأنه إنسـان متفوق وبه ميزة.

يظهر هذا بقوة في شعر المتنبي الذي يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم

•••

ويقول:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله

ولامال في الدنيا لمن قل مجده

•••

مَن يهن يسهل الهوان عليه

مـا لـجـرح بميت إيـلام

•••

انعم ولـذ فللأمور أواخـر

أبـداً كما كانت لهن أوائل

وإذا أتتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كامل

•••

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا

فأضعف ما يمر به الوحول

•••

بذا قضت الأيام مابين أهلها

مصائب قوم عند قوم فوائد

في الكوميديـا الإلهية يعلّق دانتي العبـارة التالية على باب الجحيم: «أيهـا الداخلـون إلى هـذا المـكان اتركوا خلفكـم كل طمـوح لكم إلى أي مســتقبل، واخلعـوا هنـا أمام هذه الأبـواب كل أمل لكـم بالنجاة والنجاح».

كل شيء في الحيـاة مبنــي على فكـرة التطور والتدرج في اكتســاب المعــارف والاكتشــافات الحياتية المذهلة، والكتابـة كونها تصدر من الإنســان الذي تسري عليه هذه المســتجدات، تخضــع لعملية التطور ســواء في الأســلوب أو في الأفكار والـرؤى، لأن الكتابـة في نهاية الأمر -في تقديـري- هي ليســت أكثر من وجهات نظـر وتصورات يقدمها الكاتب، وهــذه الوجهات النظر والتصورات يمكـن لها أن تزداد غنى مع السنوات.

في مختار الصحاح:» كَتَبَ من باب نصــر و(كِتَاباً) أيضاً و (كتابة)

و(الكتــاب) أيضــاَ الفَرْض والحُكْــم والقدر. و (الكاتــب) عند العرب العَالِمُ ومنه قوله تعــالى:(أم عندهم الغيب فهم يكتبون). و(الكُتَّاب) بالضم والتشديد (الكتبة). و(الكُتَّاب) أيضاً و(المكتب). و(اكْتَتَب) أي كَتَبَ ومنــه قوله تعالى:(اكْتَتَبَها) واكْتَتَب أيضاً كتب نفســه في ديوان الســلطان. و(المُكْتِب) بوزن المخرج الذي يُعَلِّم الكتابة، و(اسْــتَكْتَبَه) الشيء سأله أن يكتبه له. و(المُكاتَبَة) و(التَّكاتب) بمعنى. و(المُكاتَبُ) العبد يُكَاتب على نفسه بثمنه فإذا سعى وأداه عَتَقَ».

القــراءة هي ذاكرة الإنســان، والإنســان هو ذاكرة القــراءة، ولذلك فإن هذا الإنســان لم يجد طريقا إلى كماله إلاّ بعد أن تعلّم كيف يقرأ. فإنسان لايقرأ هو إنسان به نقص مهما كان موقعه الاجتماعي.

القــراءة هــي إحدى أهم مصــادر المعرفة، ومهما بلغ الإنســان من تطور وتقنية لتلقي المعرفة، فإنه لايستغني عن القراءة، فثمة معرفة لاتتحقق إلاّ عبر الكلمة مهما تقدّم الزمن.

الفصل الثالث

تنمية موهبة كتابة قصة الأطفال

ثم إننا نتساءل أمام شخص موهوب بالفعل كي يكون مشروعاً مهماً لفتح جديد في عالم الكتابة القصصية للطفل، ما الذي يمكن لهذا الشخص أن يفعله حتى يخطو بقدميه إلى درجات متقدمة لم يسبقه إليها أحد في خصائص القصة الموجهة للطفل.

إذا نظرنا إلى هذا الشخص، سنراه يبذل ما لديه من وقت وجهد حتى يتغلغل في عالم الطفولة التي قد يكون افتقد بعض مزاياها نتيجة لظروفه التربوية أو المعيشية.

إضافة إلى ذلك، يحتاج كاتب قصة الطفل أن يقرأ بتدبر وتأمل ما يكتبه الطفل من أفكار، وإن كان يتمتع بذائقة فنية أيضاً، فيمكنه أن ينظر إلى ما يرسمه الأطفال، هنا يستخلص شيئاً جديداً من عالم الأطفال ذاك الشيء الذي أخفق في استخلاصه وهو يتحدث إليهم وجهاً لوجه، لأن الطفل يمكن ألاّ يقول كل شيء من خلال اللفظ اللساني المباشر بسبب بعض العوامل النفسية، فهو قد يلقى حرجاً في استرسال حديث طويل، أو يشعر بحياء وهو يعبر عن مشاعره، بيد أنه من خلال التعبير الفني والأدبي، لايواجه هذه المشكلة، بل قد يعبر بشكل أكثر تعبيراً وقوة لأن الخيال في هذه الحالة يكون له معيناً، وأيضاً الوحدة التي يكون فيها تعينه على التركيز فيما يود البوح به.

إذن، عليه أن يكون قارئاً ليس جيداً للأدب الذي يكتبه الطفل، بل

بارعاً أيضــاً، ويتمتع بقوة ملاحظة في تلقي النص الأدبي الذي ينظر فيه.

من جهة أخرى، يمكننا الاســتفادة مــن القصة التي يكتبها الطفل في محاولة منا لإجراء مقارنات بينها وبين القصة التي يكتبها الكبار للأطفــال، وهــي مقارنة يمكن أن تكتســب درجــة الأهمية القصوى بالنســبة لكاتــب الطفل على وجــه الخصوص؛ لأنه يســتمد منها زاد التخاطب الأدبي مع مخيلة الطفل في علاقة تكاملية -هذه المرة- بين الطفــل المبدع، وبين الكاتب الكبير المتلقي، ثم قلب هذه العلاقة بكثير مــن الحذر لتتولد منها ثنائية علاقة تكامليــة بين الكاتب المبدع، وبين الطفل المتلقي.

إن ما يكتبه الطفل يكتســب أهمية أولى قبل أي كتابة أخرى ســواء كانــت مــن الكبار للكبــار، أو من الكبــار للأطفال، مهمــا كانت هذه الكتابات متقدمة في درجات التحليل والتوفيق، لأنها بالنســبة لكاتب الطفل تفتقــد روح التلقائية الطفلية في التعبــير، هذه التلقائية التي هي امتياز خاص بالأطفال دون غيرهم.

أريد أن أوضح أن التلقائية هنا تشبه حمل آلتي تصوير فيديو، واحدة يحملهــا رجل، والأخرى يحملها طفل، فنرى الرجل يركّز على مقاطع التصوير لأنه يشــعر بأن المصوَّر يُمثله، ويجلب عليه مســؤولية، بيد أن الطفــل يقــوم بالتصوير التلقائي دون أن يخطــر بباله أن المصوَّر

يمثلــه، وإذا كان التصوير في موقع حســاس، فنلجــأ إلى ما قد صوره الطفل بالدرجة الأولى لأنه يكون قد التقط الحقيقة كلها بتلقائيته.

التلقائية تكتســب درجة التصديــق والثقة أكثر مــن غيرها، وبناءً عليهــا قد تصــدر أحكام قضائية مهمة في حق الكبــار الذين وقعوا في قفص تلقائية طفل.

وبناءً على هذه الثقة، يعتمد الكثيرون على تلقائية الأطفال في معرفة الحقائق، فعندما يخرج طفل مع أبيه لبعض الوقت من البيت، يمكن أن تســأله أمــه فيما بعــد عن الأشــخاص والأماكــن والأحاديث التي ســمعها، لأنها تدرك بأنه ســيقول الحقيقة كلها ربمــا أكثر من أبيه الذي قد يواري بعض الحقيقة.

وهذا يحدث أيضاً بالنسبة لأهل التحقيق في الحوادث والجرائم التي تقــع في وجــود أطفال، وبرغم أن الطفل شــخص لايؤخذ بقوله كونه دون سن الرشد أو البلوغ، إلا أن قوله يؤخَذ على محمل الثقة بالنسبة للمحقق، كما هو الحال بالنسبة للأم في البيت.

وهكذا، فــإن كاتب قصة الطفل يثق بالقصة التــي يكتبها الطفل، ويسعى إلى قراءتها بكثير من التدبر والتأمل والتأويل.

علينــا أن ننتبه إلى أن الطفل وهو يكتــب، لايتجه بكتابته إلى الطفل مثلمــا يفعل كاتب قصة الطفل الذي يركّــز كتابته إلى عالم الطفولة،

بل هي كتابة منبثقة من عالم الطفولة إلى عالم الكبار، ولذلك يمكننا التعـرف على الطفل من خلال ما يكتب حتى إذا كان هذا الطفل أصمّ وهو حـين يكتب لايتجه بكتابته إلى شريحة معينة، بل يكتب منطلقاً من طبيعة تلقائية الطفولة اللامسؤولة التي هي ميزة خاصة بالطفل دون غيره.

هنا علينا أن نتجنب بشيء من الحذر مقارنة الطفل بالمجنون حتى لو تشـابهت بعض التصرفات والأقوال والسـلوكيات[1]، لأن المجنون شـخص يدور في متاهة الجنون، وعقله غـير قابل للنمو والتطور، في حـين أن الطفل، هو شـخص عاقل يتقدم في درجـات العقل والمعرفة والانفتاح على منارة الحياة.

لذلـك يرى بيتر بـروك أن نميز كثيراً بين الأدب الـذي يُكتب للطفل بشـكل خاص، وبين الأدب الذي يقرؤه الطفل بشكل عام، لأن الطفل قد يقرأ شـيئاً للكبـار من مكتبة البيـت، وقد يحـدث العكس، فيقرأ الكبير شيئاً من الأدب المكتوب بشكل حصري للطفل.

عندذاك يمكننا التعرف بشـكل جيد عـلى خصائص وميزات قصة الطفـل، ويمكننـا التفريق بينهـا وبين قصة الكبـار، والطفل أيضاً عليـه أن يميز بـين القصتين، وعلى قصة الطفل أن تسـتقطبه أكثر من قصة الكبـار إذا خيّر الطفل بين قراءة قصتين، واحدة للأطفال،

(1) يمكن الاستفادة من كتابات: هارلوا، وبانير، وهافجهير ست، وبراير وبياجة، وكولبيرج.

والأخرى للكبار.

ثمة أمـر بالغ الحساسـية والخطورة في مسـألة الكتابة للأطفال، وهو تمتع بعض الأدباء بخيال يمكنني تسميته بـ(الخيال المريض).

تـرى هذا الكاتب يسـتخدم خيالـه المريض من خـلال كتابة قصة يظـن بأنه يوجههـا إلى الأطفال، وحقيقة الأمر فـإن جانباً لابأس به من الأدباء يسـتخدمون هذا الخيال المريض ليـس في كتاباتهم فقط، بل في واقع حياتهم الشخصية أيضاً مما يحيل هذا الخيال حياتهم إلى جحيم من خلال بعض التصورات والتكهنات التي تبلغ حد الهلوسة بهم.

فترى الكاتب أسير الخيال في حياته اليومية، فإن ابتسمت له امرأة، راح بـه الخيـال شـطر أبعـاد لا تمـت إلى الحقيقة بـشيء، وبعد ذلك يكتشف بأن المرأة كانت تبتسم وهي تنظر إلى ورقة شجرة خريف قد علقت برأسه دون أن ينتبه إليها.

وإن مر بجانب صديق وألقى عليه السـلام، ولم يجب الصديق، راح بـه الخيال إلى أبعـاد لاوجود لها إلا في مخيلتـه، وحقيقة الأمر أن هذا الصديـق كان في عجلة من أمره لدرجة أنه لم يكن يرى أمامه بشـكل جيد.

على هـذا المنوال تتسـاقط شـذرات هـذا الخيال المريـض في بعض القصص التي يكتبها الكبار سواء للصغار أو حتى للكبار.

وهنا فإن الطفل هو أول من يكتشـف هذا الشيء غير المألوف الذي يسـعى لاقتحـام فطرية عالمـه دون أن يحالفه النجاح في ذلك سـواء أكان مـن خلال الكتابـة، أم من خلال العلاقة المبـاشرة بينهما وجهاً لوجه.

إن الطفـل لا يثق بهذا الكبير الذي يتصنع الكلمات والمواقف، ويبدو أمامه مزدوجاً.

كان لقمـان الحكيـم يعتمد عـلى الحكمة في مخاطبـة الطفل، وقد عرف عنه توجيهه لأبنائه، ومن ذلك أنه ذات يوم خاطب ابنه قائلاً:

يـا بني: إنما الوالدان بـاب من أبواب الجنة، فـإذا رضيا مضيت إلى الجنان، وإن سخطا حجبت عنها.

يـا بني: لا تجالس الفجار, ولا تماشـهم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم.

يـا بني: جالـس العلماء وماشـهم، عـسى أن تنـزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

يـا بني: بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعـا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً.

يا بني: عود لسـانك أن يقول: اللهم اغفر لي. فإن لله سـاعة لا يرد فيها دعاء.

وعندما رأى ابنه يصغي إليه بإنصات وقد اسـتكانت ملامحه أردف

يقول بهدوء بالغ:

جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله سـبحانه يحيي القلوب الميتـة بنـور العلم، كمـا يحيـي الأرض الميتـة بوابل السـماء، وإياك ومنازعة العلماء فإن الحكمة نزلت من السـماء صافية, فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى هوى نفوسهم.

ينصت ابنه إليه هازا رأسـه ملتمسـا المزيد من أبيه فقال: يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم.

قال الابن: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لايراني أحد، كيف يعلمها الله؟

يقـول: يا بني إن أتتك مثقال حبة من خردل فلتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير.

ثـم أردف: يا بنـي أقم الصلاة، وأمر بالمعروف وانـه عن المنكر، ثم بعـد لحظات صمت أخرى والابن يتلقى الحكمـة من أبيه بمزيد من الإنصـات، وقد تسربت راحة نفسـية إليه: واصبر عـلى ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور.

صمت الأب مرة أخرى, فرفع الابن رأسه إليه يسأله المزيد فقال:

ولا تصعر خدك للناس.

هز الابن رأسه، وهو يبكي

فقال: ولا تمش في الأرض مرحاً

ثم بعد قليل أضاف:

إن الله لا يحب كل مختال فخور.

هز الابن رأسه وصار يبكي

فقال: واقصد في مشيك

ما يزال الابن يهز رأسه، والدموع تنهمر من عينيه وينظر سائلاً إياه المزيد، فقال: واغضض من صوتك, إن أنكر الأصوات لصوت الحمير.

ثم طلب إليه أن ينهض ليعيد أواني الطعام إلى البيت، ويرى حاجات أمه، وعندما نهض الابن ليستودعه قال: يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

يا بني اتخذ طاعة الله تجارة, تأتيك الأرباح من غير بضاعة.

يابني: أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيداً:

ابسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك، وصل أقاربك، وأمنهم من قبول قول ساع، أو سماع باغ يريد فسادك وخداعك، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك.

يابني: إياك والطمع، فإنه فقر حاضر.

يابني، كن لين الجانب، قريب المعروف، كثير التفكير، قليل الكلام، إلا في الحق، كثير البكاء، قليل الفرح، ولا تمازح، ولا تصاخب، ولا تمار.

وإذا سكت فاسكت في تفكر، وإذا تكلمت فتكلم بحكم.

يـا بني، لا يكـن الديك أكيَس منك، إذا تقـضّى الليل خفق بجناحيه، وصرخ إلى اللـه بالتسـبيح، وإيـاك والغفلـة، ولاتعلـم بذلـك الناس، ولايغرنك الناس بما لاتعلم من نفسك. لاتغتر بقول الجاهل، إن في يدك لؤلؤة وأنت تعلم أنها بعرة.

يابنـي، تعلم الخير وعلمه. واعلم أن الناس بخير مابقي الأول حتى يعلـم الآخـر. وإنما كلام المعلـم كالينابيع يحتاجها النـاس يوما هذا ويوماً هذا، فينفعون بها. وعليك بالتواضع فإن أحق الناس بالتواضع أعلمهم وأحسنهم له عملا.

يا بنـي، تعلم الحكمـة وأخلاقها كلهـا، واجعلها لك شـغلاً، وفرّغ نفسك لها.

أسرع إلى كسـبها، وأبطئ إذا أنفقتها، وقر عينا إذا جمعتها، واعلم أن الحكمـة لاتصلـح إلا باللـين، وأن اللـين جراب الحكمـة، وأن مثل الحكمة بغير تدبير بمنزلة ما في يدي غير خازنه أباحه سارقاً ووجده معوزا، أو كمثل غنم تروح في غير زريبة أتاها الذئب ووجدها ضائعة فأكلها، وتعاهد مع ذلك لسـانك، واعلم أن اللسـان باب الحكمة، فإذا ضيعت الباب دخل من لاتريد أن يدخل، فإذا حفظته حفظت الخزانة، وإن مـن ملك لسـانه إن قال، قال بعلم، وإن صمـت صمت بحلم. إذا رأى لقوله قرارا تكلم، وإن لم يره قرارا فإذا استنطقه من يريد الدين

اجتهد، وإن استنطقه السفهاء صمت.

يـا بني، لاتصوّب عينيك إلى زهرة الدنيـا، ولاتطلبن قضاء كل نهمة من الدنيا، ولتكن نهمتك فيما يقربك إلى الله.

يا بني: لاتتعلم العلم لثلاث، ولاتدعه لثلاث:

لاتتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به.

ولاتدعه زهادة فيه، ولا حياء من الناس، ولا رضا بالجهالة.

يا بني: اعتزل عدوك، واحذر صديقك، ولا تتعرض لما لايعنيك، واعلم يابني أن مَن كتم سره، كان الخيار بيده.

خذ من الدنيا بلاغك، وانفق فضول كسـبك لآخرتك، ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا، وعلى أعناق الرجال كلا.

كن كالأب لليتيم، ولاتحاب القريب، ولاتجالس السـفيه، ولاتخالط ذا الوجهين البتة.

واعلـم يا بني أن للحاسـد ثـلاث علامات يغتـاب صاحبه إن غاب، ويتملق إذا شهد، ويشمت في المصيبة.

يـا بني: إذا أردت أن تواخي رجلا فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.. لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى النـاس ممـن يعطيهم العطاء.. أنزل الناس مـن صاحبك منزلة من لاحاجة له بك ولابد لك منه.. كن كمن لايبتغي محمدة الناس ولايكسب ذمهم، فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة.. امتنع بما يخرج من

فيك، فإنك ماسكتّ سالم، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك.

يابني: اتق الله ولا تُرِ الناس أنك تخشى الله ليكرموك، وقلبك فاجر.. لتكن ذنوبك بين عينيك، وعملك خلف ظهرك، وفر من ذنوبك إلى الله، ولاتستكثر عملك.. أطع الله فإنه من أطاع الله كفاه ما أهمه وعصمه من خلقه.. يا بني عليك بالصبر واليقين ومجاهدة نفسك، واعلم أن الصبر فيه الشوق، فإذا صبرت عن محارم الله وزهدت في الدنيا، وتهاونت بالمصائب، لم يكن أحب إليك من الموت، وأنت تترقبه.

وإياك والغفلة، خف الله ولاتعلم بذلك الناس، ولايغرنك الناس بما لاتعلم من نفسك، ولا تغتر بقول الجاهل إن في يدك لؤلؤة وأنت تعلم أنها بعرة.

يا بني: كن لين الجانب، قريب المعروف، كثير التفكر، قليل الكلام إلا في الحق، كثير البكاء، قليل الفرح، ولاتمازح، ولا تصاخب، ولا تمارِ، وإذا سكت فاسكت في تفكر، وإذا تكلمت فتكلم بحكم.

يا بني إذا أنعم الله عليك بنعمة فلير أثرها عليك في شكرك وتواضعك وإحسانك إلى من هو دونك.

واعلم يا بني أن لكل شيء آفة، وآفة العمل: العجب.

لا تراءِ الناس بما يعلم الله منك غيرك، ولا تعجبن بما تعمل وإن كثر، فإنك لاتدري أيقبل الله منك أم لا.

يابني: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لابقاء

للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شـكرت.

يـا بني: إذا جاءك الشـيطان من قبل الشـك، فاغلبـه باليقين، وإذا جـاءك من قبل الكسـل فاغلبـه بذكـر القيامة، وإذا جـاءك من قبل الرغبة فأخبره بأن الدنيا زائلة، يا بني أكثر التبسم في وجوه أصحابك، وكـن كريما معهم ووافقهـم على كل ما يقربك إلى اللـه تبارك وتعالى ويباعـدك عن المعصية، وإذا اسـتعانوك فأعنهم، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، وإذا تصدقوا فتصدق معهم، واسمع لمن هو أكبر منك، ولا تجالس السفيه، ولا تخالط ذا الوجهين، وأطفئ الشر بالخير.

وذات يوم أراد ابنه الصغير أن يعرف منه السبيل إلى رضا الناس

فقال له: يا أبي أريد أن أعرف منك أمراً.

قال : نعم يا بني

قال : كيف أستطيع أن أرضي الناس جميعاً؟

لم يجبه لقمان، وفي صبيحة اليوم التالي طلب أن يصطحبه في طريق قبل ذهابهما إلى العمل في محل الخياطة.

قال نادان: أجل يا أبي.

طلب إليه لقمان أن يحضر الحمار.

أسرع نادان في إخراج الحمار إلى الطريق ومضيا بعيداً عن الديار.

بعد شيء من المسير والابن ينتظر ما يقول حتى يعرف إلى أين يتجه مع أبيه.

أوقــف لقمان الحمار، وبعد قليل ركبه داعياً الابن أن يمشي بجانبه في الطريق.

مشى نادان وهو ينتظر ما يقوله، ولقمان يمضي راكباً الحمار دون أن يتحدث بشيء.

بعد مســير طويــل اقتربا من بعض النــاس كانوا يجلســون تحت فــيء شجرة، مرّا أمامهم والقيا عليهم السلام.

أجابوا عن سلامهما، ثم قال أحدهم: أما نظرتم إلى هذا الشيخ القاسي، يركب الحمار دون أن يأبه بابنه الصغير الذي يمشي على قدميه.

التفت الابن ليجيب عنه، فمنعه لقمان وأكمل المسير.

بعــد غيابهما عن ذاك الجمع أوقف لقمــان الحمار، وطلب من ابنه أن يركب بدلاً عنه.

تــردد الابــن، إلا أنه أمره أن يفعــل ذلك، فاضطــر إلى ركوب الحمار تاركاً أباه العجوز يمشي بجانبه.

مضيا في الطريق حتى اقتربا من شخصين يسيران في ذات الطريق، وعندما مرّا من أمامهما وتبادلوا الســلام فيما بينهم، ســمعا صوت أحدهم يقول لصاحبه: انظر.. انظر، ياللعجب، هذا الابن العاق ركب الحمار تاركاً أباه الشيخ يمشي على قدميه دون أن يكرمه.

أراد الابــن أن يجيب عنــه فمنعه الأب وطلب أن يمــضي بالحمار في الطريق.

بعد مسير آخر طلب إليه أن يقف، وعند ذاك ركب هو الآخر الحمار مع ابنه، ومضيا في الطريق.

مـرّ ا بجانب جمـع من الناس يجلسـون أمـام بيت، ألقيـا عليهم السلام.

أجابـوا عن السـلام، ثم ما لبث أن قال أحدهم: يا لقسـوة قلبيهما، ركبا معاً على هذا الحمار المسكين دون أن يرأفا به.

بعد بعض المسـير طلب من ابنه أن يوقف الحمار لينزلا ويمشيا إلى جانبه.

مشـيا إلى جانب الحمار حتى مرّ ا بثلاثة رجال يمضون في الطريق، ألقيا عليهم السـلام، وبعد أن أجابوا قال أحدهم لصاحبَيه: أما رأيتم هذا العجب، معهما حمار ولا يركبانه.

عنـدذاك وقف الابـن وقال لأبيه: الآن أجبتني خير إجابة عن سـؤال البارحة يا أبت.

إذن علينـا أن ندرك بأن كاتب الطفل مهما بلغ من إمكانيات أدبية، فإنـه لاينجح في كتابـة قصة تعبر عـن تفاصيل عالـم الطفولة كما يحالف النجاح الطفل في هذه المهمة.

الكتابـة للطفل عليهـا أن تلج إلى عالم الطفولـة وتتحاور مع الطفل محافظة على مرحلته العمرية من شتى النواحي، وإلا فإنه يصطدم بها، ويرفضها وهو يشعر بأنها كتابة دخيلة على محراب عالمه الطفلي.


الفصل الرابع

تصنيف قصص الأطفال

عمـر الطفولة يبدأ من اليوم الأول ولاينتهي قبل السادسـة عشرة مـن عمره، يمكننا أن نقول عن أي شـخص يتراوح بـين هذه الفترة الزمنيـة: أنه طفل، لكن يوجد طفل في بـدء مرحلة الطفولة، ويوجد طفـل في متوسـط مرحلـة الطفولة، ويوجـد طفل في أواخـر مرحلة طفولتـه. وكل مرحلـة تتمتـع بخصائصهـا وميزاتهـا الانفتاحية، والإرسالية، والاستقبالية.

يمكنني هنا أن أضع السنوات الافتراضية لمراحل الطفولة:

أ – المرحلـة الأولى، من اليوم الأول، وحتى نهاية السـنة الأولى, وهـي مرحلة التكوين الأولي للدخول الفعلي إلى الحياة.

ب – المرحلة الثانية، من السنة الثانية، ولغاية نهاية السنة الرابعة, وهــي مرحلة محاولة لفـت النظر من خلال الأفعـال التي يقوم بها، مرحلـة إثبـات حضوره في البيـت إلى درجة إزعاج أبويـه، لأنه في هذه المرحلة لايترك شـيئاً في البيت إلا ويسـعى إلى تحريكه، وهنا يسـتقبل خياله أوسـع المشـاهد القصصية الخيالية، ويكون الخيال القصصي إيجابياً بالنسبة إليه.

ت – المرحلة الانتقالية الثالثة، من السـنة الخامسة، ولغاية نهاية السـنة الثامنة، وهي مرحلة بدايات ظهور مشاعر الخجل من بعض تصرفاتـه، يبدأ في هـذه المرحلة في التفكـير الأولي باسـتقلاليته، وقد

تـراوده بعض الأفكار السريعــة لرغبته في المهنة التــي يرغب فيها في المستقبل، وهنا يستقبل القصص والحكايا المثيرة، التي تدهشه،

ث - المرحلة الرابعة، من السنة التاسعة، ولغاية نهاية السنة الثانية عشرة، يرتاح في هذه المرحلة إلى المشــاهد القصصية التي تجنح شطر روح المغامرة، وقوة الإنســان، وســوبرمانيته، فهــو ينظر إلى الحياة بمحمل الجد، ويريد أن يكون له شأن فعلي فيها.

يمكــن على ســبيل المثال أن تُــروى له قصة مأخوذة مــن فكرة من التراث الديني على النحو الاتي:

جلست الجدة نجاة جوار حفيدتها منار حتى تروي لها قصة جديدة ريثما تعود أمها التي أخذت أختها الصغيرة براءة إلى المســتوصف من أجل تلقيحها.

قالت لها: اليوم يا حفيدتي الصغيرة أروي لك قصة الظبية.

قالــت منار: قصصك كلها جميلة يا جدتي، أريد أن أتعرف على هذه الظبية.

قالــت الجدة: كان هناك صياد يصطاد الغزلان من الأودية والجبال, وذات مرة اصطاد غزالة فربطها حتى لا تهرب، ويستطيع أن يصطاد غيرها.

هزت منار رأسها قائلة: نعم يا جدتــي.

قالت الجدة: مرّ رجل من المكان الذي فيه الظبية، ولمّا رأته، أحست

بأنــه رجل غــير عادي، نظراتها إليه جعلتها تشــعر بأنهــا أمام رجل أرسله الله لنجدتها.

(رجل ظاهر الوضاءة، أبلَجَ الوجهِ، لم تَعبه نُحلَة ولم تُزرِ به صُقلَة، وســيمٌ قســيم، في عينيه دَعَج، وفي أشــفاره وَطَف، وفي عنقه سَطع، وفي لحيته كثاثة، أزَجُّ أقرَن، إن صَمَتَ فعليه الوقار، وإن تَكلم ســما، علاهُ البهاء، أجمل الناس و أبهاهم من بعيد، وأجلاهم و أحسنهم من قريــب، حلوُ المنطق، فصل لا تذر ولا هــذَر، كأنَّ منطقه خرزات نظم يتحَــدَّرن، رَبعة، لا يأس مــن طول، ولا تقتَحِمُه عين من قِصر، غُصن بين غصنين، محشود محفود، لا عابس ولا مُفَنَّد).

عندئــذ نــادت بأعلى صوتهــا وهي تنظر إليه بدهشــة: ياســيدي.. النجدة.

ســمع الرجــل صوتها ودنــا منها فأردفــت الظبية: يا ســيدي، لقد اصطادني ذاك الصياد وربطني هنا.

وقف الرجل بجوارها يلقي نظرة إليها، ثم إلى الصياد، فقالت الظبية والدموع تملأ عينيها: اســتيقظت باكراً يا ســيدي ، وكنتُ جائعة، لم أســتطع أن أرضع صغاري, تركتها خلف ذاك الجبل وجئتُ باحثة عن طعام حتى أعود وأرضعها.

ثم بلعــت ريقها الجاف واســتأنفت: لقد وجدتُ طعاماً يا ســيدي، تناولته على عجل وســلكتُ طريق العودة راكضة، وصوت صغاري لا

يفارق سمعي، وهنا يا سيدي فوجئتُ بهذا الصياد الذي نصب لي فخاً واصطادني.

كل هـذا يـا بنتي والرجل يسـتمع إلى هـذه الظبية التي اسـتأنفت حديثها وهي تنظر إليه متوسلة: أسألك يا سيدي أن تشفع لي وتطلب مـن هذا الصياد أن يفـك أسري حتى أذهب إلى صغـاري التي تتضور جوعـاً بانتظاري، أرضعها حتى تشـبع، وأعاهدك بأنني سـأعود إلى مكاني هذا بين يدَي الصياد.

نظرتْ منار إلى جدتها قائلة: هه يا جدتي، هل عادت إلى صغارها؟

قالت الجدة: طلب الرجل من الصياد أن يحل رباطها لتذهب فترضع صغارها وتعـود، وتعهّد للصيـاد بأنه يكفل عـودة الظبية، ويتحمّل مسؤولية عدم عودتها.

أمام ذلك راح الصياد يحرر الظبية التي هرعتْ كالسهم حتى توارت عن الأنظار خلف الجبل.

بعـد حين من الانتظار تراءت الظبية مـن خلف الجبل حتى وصلتْ إلى ذات المـكان الذي كانت مربوطة فيه، وتقدّم الصياد ليربطها، لكن الرجل أراد أن يكافئها على وفائها بعهدها معه، فطلب من الصياد أن يطلق سراحها ثانية.

اسـتجاب الصياد لتوجيه الرجل بسرور، فهرعتْ الظبية وهي تشدو: حقا إنك رحمة مهداة يا سيدي، وراحت تروي ما وقع معها لصغارها.

ج - المرحلة الانتقالية الخامسة، من السنة الثالثة عشرة، ولغاية نهاية السنة السادسة عشرة.

يراوده إحساس بالمسؤولية تجاه البيت، واسم العائلة، وقد يسعى إلى تعلّم بعض المهن، ويشعر بفرحة ومتعة عندما يجلب إلى البيت سلعة اقتداءً بأبيه، يريد في هذه المرحلة الانتقالية أن يثبت لأبيه بأنه رجل، والبنت تريد أيضاً أن توحي لأمها -من خلال بعض التصرفات - بأنها فتاة، وكما أن الولد يريد أن يثبت لأبيه بأنه بات رجلاً من خلال عنايته بأمه وإخوته، فإن البنت تسعى إلى إثبات ذلك من خلال عنايتها بأبيها، وتمتلئ سروراً عندما تجلب له كأس ماء، أو تصنع له كأساً من العصير، أو تسلق له بيضة، وهنا يكون الطفل مهيئاً لقراءة القصص التي تخلو من الألوان والصور، ولم يعد يميل إلى تلك القصص التي كان يقرؤها أو يسمعها عندما كان في المرحلة الثانية من عمره الطفولي.

وعندما يجد الأب شيئاً من الخشونة أو العنف على ابنه وقد بلغ السادسة عشرة من عمره: يمكن أن يحّثه بلغة غير مباشرة قائلاً على سبيل المثال:

على جناح بغتة تعكر صفاء الطبيعة ولاحت بدايات عاصفة محتقنة في الأفق، كل الكائنات المنتشرة في حضن الطبيعة فترة ما قبل الظهيرة هذه أصابها الجفل من التحول المباغت في السكون الخريفي،

وغدا كل كائن صغير وكبير مثل السهم وصولاً إلى وكره، أو باحثاً عن أي ملجأ يقيــه عواقب هذه العاصفة التي بدت كهزة في قلب الخريف الآمن.

في هذه الأثناء كان ثمة نمر يلتهم فريسة وقع عليها للتو، فانتبه إلى الضجيج الذي غدا شبيهاً بحرب فتاكة من حولــه، رفع رأسه بحركة سريعة وأدرك بأنه بات قاب قوســين أو أدنى من دائرة الخطر، كانت العاصفة إذ ذاك قد غدت على مقربة منه ومقدمتها تعصف بكل شيء في دربها، فلم يجد النمر الممتلئ بالرعب سوى أن يهرع أمام العاصفة علهــا لا تلحقــه أو عله يجــد مصادفة ملجأ يحميه مــن هذا الغضب العاصف.

يهــرع النمر.. ما يزال يهرع بقوة ركض لم يكن يتخيلها في طاقته، والعاصفة القاتمة تلاحقه بسرعة الصاعقة.

لم يعد يعرف إن كان هو الذي يقترب منها، أو هي التي تدنو لتشرب روحه وتفتت جسده كأنه لم يكن.

تمتلــئ روحه بالذعر الــذي يفجّر من طرفه طاقــة أقوى للركض، كل ذرة فيه ترتعد رعباً من النهاية المأساوية الشرسة، إنها العاصفة التي تحصد الغابــات والبيوت وحتى الجبال الصغيرة، تخلع كل شيء من الجبال الشاهقة فتحيلها إلى جبال ملساء.

يتخيــل النمر كل هذه المناظر وهو يرى الآثار تتطاير وتتناثر أمامه

في مقدمــة العاصفــة، كل هذه المناظر تمضي أمــام عينيه وهو طائر كسهم طائش لا يدري أين سيقع.. يجري من مصير مجهول يلاحقه ثانيــة بثانية وهو يشــعر بأنه يهــرب نحو عدم الخــروج من الحياة برمتها، من الغابات والأشجار ولحظات الظفر بطعام شهي.

بغتــة أحس بدنو العاصفة فلم يعرف ما الذي ســيفعله، كل ما هو مصر عليه هو عدم الاستســلام كما تستســلم تلــك الفرائس الواهنة لفكيه، لم يعجبه أن يتخيل نفسه في وضع كهذا يقع فريسة مستسلمة لفكي العاصفة الشرسة، وبغتة اصطدم جسده بصخرة ضخمة بدت صامدة في وجه الريح، وفي رفة جفن رأى نفســه وسط العاصفة وقد تشبثت يداه وقدماه بالصخرة والرياح العاتية تمر عليه بشدة لم يكن يتخيلها تاركة أزيزاً نارياً في أذنيه.

لكنــه لقاء ذلك أحس بأمــر غريب عندما أدرك أنــه تمكن جيداً من الصخرة وقد حفر مواضع في جســد الصخرة الصامدة، وهذا ما زاده إصراراً على المواجهة وعدم ترك جســده يذهب هباءً، فقد استطاع أن يحفر في الصخر وهذه حقيقة يلمسها، لكنه في الوقت ذاته أخذ يحس بأن العاصفة تقتلع بعضاً من وبره، فلم يأبه لذلك قائلاً لنفســه بأن الوبر سيعود وينمو مرة أخرى عندما يأتي فصل الربيع.

بعــد لحظــات رعب أخرى أحــس بشيء مــن جلده يُقتلــع في مهب قوة العاصفة، فامتلأ ذعراً وهو يشــعر بأن الجلد ينســلخ عن جسده

ويعاني حرقة لم يذقها طوال حياته، إلا أنه يتمسك ببقايا أمل ما دام لم يستسلم نهائياً، وما دامت لديه قدرة على المواجهة والصمود وعدم الاستسلام لحرب الطبيعة.

أدرك أن الجلد انسلخ تماماً وأنه لبث جسداً بلا جلد يواجه عنف العاصفة وجحيم الألم في لحظة واحدة.

مرت لحظات مزلزلة أخرى على روحه التي ضاقت به وضاق بها وهو يواجه ما لم يكن يتخيله من لحظات يبلغ فيها العنف ذروته وتبلغ حدة الألم قمتها، وهنيهة هنيهة أخذت نيران العاصفة تخمد عليه، عبّ نفساً طويلاً وبدأ يسدل قوائمه شيئاً فشيئاً عن الصخرة وهو يرى بصيص ضوء يلوح من بعيد كأنه ضوء قادم بعد دهر من ظلام أزلي.

ترك قوائمه من الصخرة ليجلس على ذيله يعب أنفاساً طويلة ويتأمل نعمة الهدوء.

عندها قال لنفسه: كم أنت قوي أيها النمر، وكم أنك متشبث بالحياة.

لكنه بعد هنيهة بكى ووبخ نفسه على لحظات الرعب التي عاشها قائلاً: لو كنت أعرف حجم هذه القوة في جسدي لما انهزمت من العاصفة.

واكتشف عند ذاك بأن ما تركه الرعب من أثر عليه كان أسوأ مما

تركتـه العاصفــة وأنه لو واجـه الرياح بالقــوة التي اكتشــفها للتو لعجزت عن سلخ جلده، ولعجزت عن تسبيب كل ذاك الذعر في نفسه، ثم ألقى نظرة على جسـده المسـلوخ وأردف: في الربيع القادم سـوف ينمو جسدي بجلد جديد.

ومضى في حضن الطبيعة التي بدت أمامه وليدة للتو..

تسـاقط رذاذ خفيف من السـماء وسـطعت الشـمس مـرة أخرى عـلى الأرض خرجت عـلى إثرها الحيوانات مـن مخابئها، أحس النمر بجوع ورغبة في التقاط فريسـة، لكنه تذكر قوته الهائلة التي يتمتع بهـا وقال: وأنا بكل هذه القـوة الهائلة، كم كنت جباناً في افتراس تلك الحيوانات الواهنة، إنني خجول من كل هذه القوة التي اكتشـفتها في طاقتي.

أدرك بأنـه عندمـا كان يطـارد فريسـة كان في الوقـت ذاته يجرب قوتـه ليكتشـفها، وكان دافعه الجبـن الكامن في أعماقـه، ولذلك لم يكن بوسـعه أن يكتشف كل طاقة القوة التي يتمتع بها رغم كل تلك الفرائس التي كان يقع فيها أحياناً حتى وهو شـبعان: أجل لقد كنت جباناً أيها النمر.. كنت جباناً وأنت تجرب جبنك على الحيوانات الآمنة الضعيفة.

تذكـر حجم الألم الذي عاشـه في لحظات سـلخ الجلد عن جسـده وهمهم لنفسه: لن يكون الجوع أشرس من تلك العاصفة.

من يومها وهو يقاوم رغبة الافتراس كلما لاحت لــه فريسة ليصبح يوماً بعد يوم نباتياً ويزداد قوة على قوة[1].

أمام هذا التقسـيم الزمني يمكنني أن أفرز النتاج القصصي بحسب المراحـل التي يلجهـا الطفل، وليـس الكاتب هو الذي يقــرر أن تكون قصته لمرحلة طفلية دون غيرها، وإذا صنع الكاتب ذلك، فإنه يتصنع الكتابة حتى تكون مناسبة لمرحلة زمنية خاصة بالطفل، لكن ذلك يقع عــلى عاتق الناقد البارع المتمكن الذي يسـتطيع أن يفرز كتاب القصة الطفليــة، وأيضاً يفرز نتاج كاتب واحد من خلال المراحل الزمنية التي كتــب فيها، فيقول على سـبيل المثال: إن المرحلــة الأولى التي كتب فيها أندرســون قصصه تصلح لسـنوات مــا بين الثالثة عشرة والسادســة عشرة، والمرحلة الثانية تصلح للأطفال ما بين التاسعة والثانية عشرة، والمرحلة الثالثة تصلح للأطفال ما بين الخامسة والثامنة.

لأن كاتــب الطفــل كلما تقــدم في كتابتــه للطفل، تعــرف على عالم الطفولــة أكثــر، وما ذلك إلاّ لأنه يتقدم نحو الشــيخوخة التي تشــبه مرحلــة العــودة إلى الطفولة، من حيث اشــتعال المخيلــة مرة أخرى، وكذلك التعامل مع وهن أعضاء الجســد، وآلام الأسنان، والوقاية من بعض ألوان الطعام والشراب.

إن عامــل الطقس أيضــاً يؤدي دوراً في مراحل الطفولة وســنواتها،

---

(1) غيوم من الشرق، مجموعة قصصية، عبدالباقي يوسف، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

فمثلاً في الدول الإسكندنافية المعروفة ببرودة الطقس، يمكن أن تمتد مرحلـة الطفولة إلى السادسـة عـشرة، بينما لاتكاد تتجـاوز الثانية عشرة في البلدان الحارة، أو شـديدة الحرارة مثل بعض مناطق الدول الإفريقية، وبناء على هذا الاختلاف، تختلف مرحلة المراهقة أيضاً.

وعلى العموم فيمكننا أن نرى شذرات من هذا التقسيم التلقائي حتى في الأدب المكتـوب لشرائح الكبار، فهناك روايـة مقروءة لدى مختلف شرائح الكبار، وهناك رواية لا تقرؤها ولا تستوعبها ولا تستمتع بها إلا النخبـة التي تقدمت في مسـألة الوعي القرائي، فشـخص قرأ مئة روايـة في عمره، ليس كرجـل قرأ ألفي رواية، ولذلـك فحتى في القرآن الكريـم، فإن الإنسـان يرتقـي على قدر ما يقـرأ ويتدبـر في قراءاته، ورجل قرأ القرآن مئة مرة، ليس كرجل قرأ القرآن ألفي مرة، والقراءة بالنسبة للرجلين تختلف.

وهذا يحدث بالنسبة للأطفال، فيتم تعليمهم وفق مناهج مخصصة لحفـظ وقراءة وتلقي القرآن، سـواء من خلال اختيار الأجزاء، أو من خلال الأحجام المناسبة التي يمكن أن تناسب الطفل، لأن الطفل ليس بوسـعه أن يحمل طبعـة ضخمة من القرآن الكريـم، ولا أن يقرأ من هذه الطبعة، ولذلـك فهو يتدرج في تلقي وقراءة ومعرفة القرآن وفق المراحل العمرية التي يلجها.


الفصل الخامس

المرأة والكتابة للطفل

أريد أن أقول هنا بأن المرأة الكاتبة يحالفها النجاح في الكتابة للطفل بدرجـة أعلى من الرجـل، ذلك أن المرأة تمكث مع الطفل فترة أكثر من الرجـل، وهي تتحاور مـع الطفل أكثر مما يفعـل الرجل، كذلك فهي تحمل الطفل وهو جنين وتعقد علاقة أولية معه مدة تسـعة أشـهر، وهذا ما لايكون للرجل.

حتـى في البيـت يمكـن أن نلاحـظ أن المرأة تسـتوعب الطفـل أكثر مـن الرجل، ويمكـن للرجل أن ينفر من إزعاجـات ابنه، أو من بكائه الطويـل في الليل، فيخرج إلى غرفة أخرى ليبتعد عنه ويحقق لنفسـه راحة وسكينة، بيد أن المرأة لايمكن لها أن تفعل ذلك، بل تبقى تتحايل على طفلها بكل الوسائل، وتهدهده حتى ترضيه ويغفو بين يديها.

إنهـا لا تتهرب من مسـؤوليتها عندما يهرب الأب من مسـؤوليته، وتصبر على طفلها عندما ينفد صبر الأب، ولذلك فإن هذه الأم يمكنها مخاطبـة طفلها أدبياً بدرجة أكثر قربـاً من الرجل. أقول طفلها لأن أي امرأة عندما تنظر إلى أي طفل في العالم، ينتابها إحساس بأنه جزء منها بسـبب المعاناة المشتركة التي تشترك فيها نساء العالم، وبسبب مشاعر الأمومة الفطرية المشتركة بين النساء كافة سواء أكن أمهات، أم كن عانسات، أم كن فتيات.

أقـول مشـاعرالأمومة الفطريـة المشـتركة، لأن مشـاعر الأب هي

مشـاعر مكتسـبة بالمقارنـة مع مشـاعر الأم كونه لايشـعر بمعنى الأبـوة الحقيقيـة إلا بعد ولادة الطفـل، ونموه، ومداعبتـه، والتعرف على ملامحه، وكلما كبر الطفل، أكسب الأب مشاعر مسؤولية الأبوة، بينما الأم تطعمه وتسـقيه، وتعالجه، وتداعبه، وتحدثه تسعة أشهر في بطنها قبل أن تراه رأي العين، وهي بذلك لاتزداد أمومة له فقط، بل تـزداد حناناً له أيضاً، هـذا الحنان الذي يجعلها تفدي طفلها بعمرها من خلال كلماتها اليومية معه، في حين لايجعل الأب من نفسه قرباناً لابنه على الأقل من خلال الألفاظ كما تفعل الأم بمسرة.

تتابع الأم مراحل نمو طفلها حركة حركة،في الشـهر الأول تنظر إلى يديه القريبتين من بعضهما، وتشابك أصابعه.

في الشـهر الثاني يبدأ يرفع رأسـه، وينظر إلى الحـركات من حوله، وترتسم على شفتيه بسمة صغيرة.

في الشهر الثالث يحرك قدميه، ويمص أصابعه، يكثر البكاء.

في الشهر الرابع يرفع رأسه بشكل جيد، ويريد أن يتحرك في محاولة ليتقلب على يمينه أو يساره، يضحك بصوت لافت للنظر.

في الشهر الخامس يستقيم ظهره وهي تحاول أن تجلسه، يحدق في الوجوه وكأنه يبدأ في تمييزها.

في الشـهر السـادس تنظر إليـه وهو ينقلب على بطنـه ويحاول أن يرفع جسده بواسطة يديه، وتتابع تشكّل أسنانه اللبنية المؤقتة.

في الشــهر الســابع توقفه على قدميــه، فيلبث واقفاً بمســاعدتها، ينتزع الدمى والألعاب من يديها، وتسمعه لأول مرة يلفظ: مم.. أي.. آه.

في الشــهر الثامن توقفه عــلى قدميه، وتدعه لبريهــات فيميل، تمد يديهــا لتســنده وهي تدربــه على الوقــوف، يعتمد على يديه في مســك زجاجة الحليب، ينقلها من يد إلى أخرى.

في الشهر التاسع تراقبه وهو يزحف بشكل جدي على يديه وقدميه، يقول: ما.. با.. دا.

في الشــهر العاشر يقف على قدميه بمساعدة قليلة منها، يحاول أن يقلدها في بعض الحركات، يبحث بيديه عن الدمى والألعاب.

في الشــهر الحادي عشر تمســك به من الخلف فيمــد خطواته نحو المشي وهو يقول: ماما.. دادا.

تضع خيطا في أسفل قدميه ليقطع الخيط ويمد خطواته.

بعد شــهر يمد خطوات المســير بشــكل أفضل ويبتعــد عنها، يرفع الملعقة ويأكل بها، ويصفق لأول مرة.

في الشــهر الخامس عشر يرفع جســده إلى الأرجوحة، وينزل منها، يصر على بعض الأشياء التي يريدها.

بعــد ثلاثــة أشــهر تلاعبه، ويركــض، يســمّي بعض الأشــياء التي يراها.

إنهــا تعيش كل هــذه المراحل مع طفلها، وتتابعــه خطوة بخطوة، لذلك يمكننا ببســاطة ملاحظة امرأة في أي شــارع من شوارع العالم، أو في أي حافلــة، تتقدم نحو طفــل وتأذن أمه حتى تظفر منه بقبلة، وقد تبيّنــتْ لي هذه الحقيقة من خلال التجربة الشــخصية بعد ولادة ابنتــي (روهات) التي هي مع كتابة هذه الســطور في ســنتها الثالثة النصف، وولادة ابني (لوند) الذي هو في ســنته الأولى والنصف، أذكر هذا لأنني ما أزال في ذروة المشاهدة اليومية لِما تبيّن، ويتبيّن معي.

لاحظتُ هذه الحقيقة التي لفتت نظري بسبب التكرار، ولأننا نسافر كثيراً، يمكنني القول: إن آلاف النسوة تقدمن من زوجتي وهن يقلن: أتسمحين يامدام أن أقبلها.

ثــم تأتي امرأة أخرى وهي تنظر إلى أخيها قائلة: أتســمحين يامدام أن أقبله ؟

وعند الموافقة أرى المرأة تحمل الطفل في حضنها، وتقبله، ثم تعطيه هدية صغيرة مثل قطعة ســكر،أو شــوكولا، أو بســكوت. عندئذ أرى بأن صدر المرأة انشرح وهي تمضي بسرور.

ومــا كان يحدث بتكرار مع ابنتي، يحــدث الآن مع ابني لأنه يجذب عيون النساء أكثر بسبب صغر سنه.

أذكر هذه الوقائع الشــخصية لأنني أرغب في أن أعزّز فكرة إمكانية كتابــة المــرأة للطفل بدرجــة أبلغ وأعمق مما قد يقــوم به أي رجل في

العالـم، في الوقت الذي لاأكاد أذكر فيه رجـلاً واحداً تقدم من زوجتي واسـتأذنها كـي يظفر بقبلـة من ابنتـي أو من أخيهـا مقارنة بكل تلـك الأعداد الهائلة من النسـوة المختلفات الأعمـار والمواقع والألوان واللغات والأديان.

وأمـام جواب واحـد كنـتُ أردده لنفسـي: الرجل الـذي يتهرب من مسؤوليته الأبوية بعد منتصف الليل، لايصعب عليه ألاّ تنتابه مشاعر أبوية تجاه طفل رآه صدفة في حافلة نقل ما، أو في حانوت ما.

إذن، هذا الرجل إذا كان كاتباً للأطفال، هل سيبلغ المبلغ الذي تحققه المـرأة في التعبير عن عالم الطفل، وفي اعتقـادي أن الأمومة ذاتها هي لمسـة ناعمة قادمة من بسـتان الطفولة، في حين أن الأبوة هي كلمة تحتمل الخشونة والرعونة أكثر مما تتسع لها كلمة «الأمومة».

من جهة أخرى، فإن شـخصية الأم تذكرنا بسـنوات الطفولة أكثر ممـا تذكرنـا شـخصية الأب، فإذا نظرنـا إلى أمهاتنـا، تذكرنا ملامح الطفولة وفيض براءتها، وفصول سنواتها.

لذلك فإن أول ما يوجه للرجل العاق بأمه: تذكّر بأنها حملتك تسعة أشهر في بطنها، وأرضعتك حليباً من ثديها.

بمعنى تذكّر سـنوات طفولتك فيها، ولاتنس تلك البصمات الخالدة التي تركتها على بدنك، وعلى نفسك أيضاً.

إذا نظرنـا إلى غالبيـة الكتابات التـي كتبها الرجل للطفل، سـنرى

ملامح الموعظة، وإن بدت مغلّفة بأغلفة فنية، وتقنيات أدبية، نشعر بـأن الكاتب لـم يتخلص من مشـاعره بأنـه كبير، ويريد أن يسـدي نصحاً، أو موعظـة لطفل صغير، وفي بعض الأحيان، نراه يتعامل مع الطفل كما لوأ نه (يأخذه على قدر عقله) كمن يمسك بيد طفل ويعبر به الشـارع، أو كما يمكننا القول: إنه يضحك على الطفل، ويستهزئ به بطريقة غير مباشرة.

ومعلـوم أن الطفل ليس من اليسر الضحك عليه مهما كان صغيراً، وهو عندما يرضى عن تصرفات معينة، يرضى عنها برضا تام، وبذكاء أيضا، أعني الذكاء الفطـري للطفل، وهو ليس غبياً بأي مقياس من المقاييس، وهـو ليس مجنوناً لأنه يمتلك عقلاً قابـلاً للنمو والتطور والانفتاح. ولعلي أذكر مقولة لأحد الفلاسفة عرّف فيها الطفل قائلاً: إن الطفل في حقيقة الأمر هو فيلسوف صغير.

وكمـا في وقائع التعامـل اليومي، يمكن للطفل أن يشـعر بأن الذي يتحـدث معه يكذب عليه، فلا يصدقـه، ولايثق به، ويبقى مصراً على موقفـه، فإنه كذلـك في القصة التي يقرؤها، يشـعر بأن هذه القصة تستهزئ بمدركاته، لذلك لايكمل قراءتها، ولايصدّق كاتبها، ويتحاشى أن يقرأ له مرة أخرى.



الفصل السادس

توظيف الخيال في قصة الأطفال

لوقلنا بأننا نصدق أطفالنا في جل ما نقول لهم، فإننا لانصدق أنفسنا، ولانصدق الآخرين.

إننـا نضطر أحيانـاً إلى شيء من التحايل على أطفالنـا في مواقف ما حتى نتجنّب الصـدام المباشر معهم، وحقيقة الأمر، فلايمكننا القول: إنهـم لايتعاملـون معنا التعامل ذاته وفق ذات المنظـور، فهو أيضاً قد يقبل هذا الاتجاه بشيء من التحايل حتى تهدأ الأمور، ثم يشعلها كرة أخرى في وقت آخر.

إنه وهو يقبل لاينسى، بل يتناسى حتى تنتهي الأمور على خير.

عندمـا ينظـر ابنـك إلى طائرة تحلّـق في السـماء، فيطلـب منك أن تشتريها له.

الشعور الأول الذي ينتابك، هو إحساس ابنك بأنك الأب -السلطة العليا- التي بوسـعها أن تقدم كل شيء له، وتحقـق كل طلباته، وإذا أحس بغير هذا الإحساس نحوك، فإنه قد يوجه هذا الإحساس، وهذا المطلب لشخص آخـر يحتل موقع قدرة الأبوة لديه لأن الطفل يحتاج إلى شـعور بالحماية الأبوية، وبالمقدرة الأبوية غير المحدودة، إنه «رب البيت».

عندئذ تقول له: نعم يابني، سوف أشتريها لك، وأنت تدرك بأنك لاتصدقه القـول، ولكن حتى لاتخيّب ظنه فيـك، وتجنبه التفكير في منعرجات غير محمودة.

توافقه وتعده بأنك ستشتري له طائرة، لكنها مختلفة عن تلك الطائرة التـي يريدها، وهو أيضاً عند ذاك يدرك مقدرتـك المحدودة للتو على جلب مطالبه، فيرضى بما دعتك قدرتك عليه.

ثم لنفرض أن هزة أرضية وقعت فإن الطفل بشكل عفوي يرمي نفسه في حضـن أبيـه حتى يحتمي به، وإذا وقع حادث سـير، فإنـه يفعل ذلك لأنه يشعر بأن أباه قادر على حمايته وأن قوته تفوق قوة الحوادث، وهو كائن خـارق القدرات لذلك يأخـذه الخيال إلى تلك المواطـن، وهو حقيقة الأمـر يرغـب في أن يكون أبوه كذلك، ولكن أمام سـطوع الحقيقة يرضى بالأمر الواقع على مضض.

لذلك عندما يقول طفل لأبيه: أريد نجمة.

يمكن للأب أن يرفع كفه، وكأنه يقطف تفاحة من شـجرة البيت قائلاً لابنه: هذه نجمة.

فيضحـك الابن برضى رغم أنه يرى الكف فارغة، بل يعيد المطلب مرات عديدة، حتى يقوم الأب بذات الفعل.

إنه حـوار داخلي بين الابـن والأب، يختبر فيه الطفل مـن خلال لاوعيه مقدرة الأب الحقيقية، وهو يفعل ذلك بذكاء أكثر مما يفعله بغباء.

وفي الحروب عندما يسـمع الطفل وقع انفجار، يهرع الطفل إلى حضن أبيه ظاناً بأنه يستطيع أن يمنع عنه شظايا الانفجار، وهو يظن -ويرغب أن يظن، وأن يمسي الظن حقيقة ولو مرة واحدة- بأن قوة الأب هي أعلى من قوة ترسانات الحروب.

الطفل هنا يدفع بأبيه كي يســتجيب له حتى لايفقد الثقة بقوة أبوته، والأب يقدم على ذلك حتى يتعرف ابنه على الحقيقة بشكل متدرج.

وأحياناً تضطر الأم إلى التحايل على ابنها وتحذيره كي ينام قائلة له: نم قبل أن يأتي الكلب الذي يعض الأطفال.

وهــي عبــارة موجهة إلى الطفــل بامتياز، توجهها النســوة الريفيات -في الأغلب لأطفالهن حتى يناموا، فإذا نظرنا إلى العبارة سندرك أنها موجهة إلى الطفل، والطفل قد لا يستقبل هذا التحذير ويستجيب له من منطلق الغباء، بل قد يســتقبله ويستجيب له من منطلق الذكاء؛ لأن الكلب يعض الإنسان النائم بيسر أكثر مما يتمكن من اليقظ، بل قد يفعل ذلك حتى يغمض عينيه ولايرى الكلب يدخل الحجرة، وحتى تتولى أمه الدفاع عنه لأنه عند ذاك يكون نائمــاً، وما دام هو نائم، فإنــه في حماية أمه التي لاتنام وفق مفهومه، أمه التي تتولى مهمة حمايته سواء إذا كان نائماً، أو كان يقظاً.

وقــد يحدث أن تريد أم أخذ طفلهــا إلى الطبيب، فيرتعد الطفل ويمتنع، لكنها تقول له: سنذهب إلى بيت جدك. فيرضى ويمضي معها بيسر.

هناك طرق أخرى قد يســتعين بها الأبوان في التعامل مع الطفل، وهي طرق تحايل غير مباشرة. يحدث ذلك على سبيل المثال عندما ينشج طفل بشكل متواصل، ولأي سبب.

هنــا تلجأ الأم إلى معالجــة هذه العادة بطريقة تحذيرية موظفة بشــكل دقيق، وغير مباشرة، فتقول له : البارحة فـَقـَد (إقبال) ابن جارنا صوته؟

يقول الطفل : كيف فقد صوته يا أمي؟

تقــول: صوته زعل منه، لأنــه كان يبكي دائمــاً، وذات ليلة بكى كثيراً، وعندمــا أفــاق من النوم صباحاً أحــس بأنه فقد صوتــه، وعندما أراد أن يطلب من أمه قطعة حلوى، لم يســتطع لأنه فقــد الكلام. بقي من دون حلــوى، ومــن دون أن يتناول الطعام، حتى أنه لم يعــد قادراً على البكاء، فكيف يبكي يا مسكين من دون صوت.

بعد يومين أغمي عليه وأخذته أمه إلى الطبيب الذي حقنه، وعادت معه ومع أبيه إلى البيت.

في صباح اليوم التالي خرجوا جميعاً إلى الحديقة يبحثون عن الصوت.

يستغرق الطفل في الإصغاء وهو يرى هذه المراحل التي مر بها (إقبال) الذي تركه صوته.

يقــول الأب : أجــل يابني بحثوا عــن الصوت حتى وجــدوه مختبئاً بين أوراق شجرة الخوخ في حديقة البيت، كان الصوت حزيناً، ويبكي بمرارة، وهو يرتجف من البرد.

قالت أمه للصوت: لماذا زعلت من إقبال، وهجرت حنجرته؟

قال الصوت: لقد أزعجني بصراخه المستمر حتى مرضتُ، وهربتُ منه.

قالــت: إذا وعدتــك بأن إقبــال لن يزعجك مــرة أخرى، هل ســتعود إلى حنجرتــه، إنه مســكين، يجوع ولايســتطيع أن يطلب الطعــام، يعطش، ولايســتطيع أن يطلب المــاء، إنه لايطلب شــيئاً حتى مــرض وأخذناه إلى الطبيب، هل تريد أن نأخذه إلى الطبيب كي يحقنه مرة أخرى ؟

قال الصوت: إذا وعدني بذلك، سوف أعود إليه.

عندئـذ قال إقبال : أعدك ياصوتــي بأنني لن أزعجك مرة أخرى، أرجوك عد إلي، لقد اشتقتُ إليك كثيراً.

عندها نزل الصوت من بين أورق الشجرة، وعاد إلى حنجرة إقبال، وعادوا جميعاً إلى البيت وأقاموا حفلة بهذه المناسبة دعوا إليها أصدقاء إقبال.

من يومها لم يعد إقبال يصرخ في البيت، ولا يبكي، وعندما يريد شــيئاً، يطلبه من أمه بصوت هادئ حتى لايهجره صوته مرة أخرى.

إن المتعامل مع الطفل عليه أن يلجأ إلى شيء من الخيال حتى يستطيع أن يتواصل مع الطفل، وبالنســبة لكاتب قصــة الأطفال، فهو يحتاج إلى توظيف هذا الخيال بشكل إيجابي أكثر من الأبوين، لأنه يمد حبلاً إلى عالم الطفــل من بعيد، ويفترض أن الطفل ســوف يتناول منه رأس الحبل كي يغدو جسراً تواصلياً بينهما، وهنا قد يعفي الكاتب الأبوين من الكثير من المشقة بقصصه الهادفة.

إن كاتب قصص الأطفال عليه أن يتمتع بخيال خصب معافى يشطح به في أفق واســعة قصد اكتشاف مساحات سحرية الواقع كما هو الحال في الكثير من القصص التي خلدت في ذاكرة مكتبة الطفل مثل: كليلة ودمنة، وعلاء الدين والمصباح السحري، والسندباد البحري، والأمير الصغير، وتوم أند جيري، وعلي بابا والأربعين حرامياً، وسندريلا، وأليس في بلاد العجائب، وحكايــات أندرســون، وتان تان، وميكــي ماوس، وحكايــات ذات الرداء الأحمر، وبياض الثلج، والأقزام السبعة، للأخوين الألمانيين غريم.

إنها قصص تقدّم للطفل التسلية والمتعة، وتحضه على استخدام الخيال

مـن جهة، وعلى تلقي الخيال والتفاعل معـه من جهة أخرى، بيد أن هذا الخيال يسـتخدمه القاص غير المتمكن بشـكل ممـل يبعث على الضجر لأنه يخلو من المقدرة على سـحر الطفل، والقصـة التي تخلو من عنصر التشـويق هذا، فإنها لاتترك أثراً لديه، وهو يتأثر بها ويتفاعل معها على قدر ما تدخله إلى سحرية عوالمها.

في قصة الأمير الصغير يسـتخدم (أنطوان دي سـانت إيكزويري) هذه السـحرية الموجهـة إلى الطفل، فلـو كان الطفل الذي يـؤدي بطولة هذه القصة من أبناء كوكب الأرض، لفقدت القصة عنصر السحرية والدهشة والغرابـة، بيد أنـه يقدم من كوكب آخر، ويكتشـف للناس جماليات هذا الكوكب، وهي قصة يمكن قراءتها بالنسـبة للصغار، واليافعين، والكبار أيضـاً، فقـد قرأتها في مراحل متعددة، وكل قراءة كانت تقدم لي شـيئاً لم أكن عرفته في القراءة التي سبقتها، على الرغم من أن كاتبها كتبها بشكل سريـع ومختصر، وهـي لاتتمتع بفنية القصـة العاليـة، ولا بالتقنيات القصصية البارعة، لكنها قصة الفكرة الجيدة، إن الفكرة في هذه القصة شفعت للكثير من المآخذ عليها.

يقول السارد الذي تعطلت به طائرته في الصحراء الإفريقية:

«رأيـت وأنا في السادسـة مـن عمري، صـورة رائعة في كتاب عـن «الغابة العذراء» يدعى «قصص حقيقية» وكانت الصورة تمثل ثعباناً يبتلع وحشاً.

وقـرأت في الكتـاب: إن الثعابين تبتلع فريسـتها بكاملهـا، من دون أن تمضغها، فإذا ابتلعتها عجزت عن كل حركة ونامت مدة ستة أشهر حتى

تنتهي من هضمها. وبعد أن فكرت ملياً فيما يقع في الغابات من الحوادث أخذت قلماً فيه رصاصة ملونة وخططت أول رسم رسمته.

ثم أريت باكورة فني الكبار من الناس وسألتهم قائلاً: أما يخيفكم هذا الرسم؟

فأجابوا: متى كانت القبعة تخيف الناس؟

مـا كان رسـمي يمثـل قبعة بل ثعبانـاً يهضم فيلاً. ثم رسـمت باطن الثعبـان عـسى أن يفهم الكبار فإنهم في حاجة دائمـة إلى الإيضاح. وكان رسمي الثاني كما ترى: فلما أبرزته لكبار الناس نصحوا لي بأن أدع جانباً رسـم الثعابين من الخـارج والباطن وقالوا: الأفضل لـك أن تعني بدرس الجغرافية والتاريخ والحسـاب وقواعد اللغة. فأهملت، وأنا في السادسة من عمري، مسـتقبلاً باهراً في فن التصوير لأن رسـمي الأول والثاني لم يروقا كبار الناس. إن هؤلاء الكبار لا يدركون شـيئاً من تلقاء نفوسـهم فلا بد للصغار من أن يشرحوا لهم ويطيلوا الشرح ويكرروا. ولا يخفى ما في هذا من التعب والعناء.

إنهـا قصة تعليميـة تصلح للقـراءة في كل زمان ومـكان، وهي قصة تربوية وتوجيهية، توجه الطفل كي يعرف قيمة الزمن، وقيمة المنجزات البشرية، وقيمة فصول الطبيعة.

هـذه القصة تعـرف كيف توجهـك في مراحـل قراءتهـا، تمنح روحك بعضاً من صفحاتها, ثم تأمرك بتأجيل ما تبقى إلى الغد دون أن تقبل أي مسـاومة منك لتلقب ولو جملة أخرى. فتضطر إلى الإذعان وتعود في الغد

لتمنحك بضع صفحات مشرقة أخرى, ثم تقول: كفى من فضلك.

تقول لك هذا وأنت في ذروة العلاقة الروحية والحدسـية مع نسـيجها، وعندما تريد إرغامها على القبول في الاسـتمرار تقول لك بشـفافية امرأة بالغة الرقة: لكن أرجوك فأنت لست مهيأ الآن، وأنا لستُ مهيأة، إنني أتألم، سأعيدك إلي وسأهبك نفسي وجسـدي عندما تتهيأ حواسك لاستقبال ما تبقى مني، عندما أتهيأ لمنحك كل ما لدي. فتناديك في الغد إلى عرسها معك, ثم ما تلبث مرة أخرى أن تكرهك على التوقف وأنت في قمة انسجامك، ولا تملك مرة أخرى غير أن ترضخ لتوسلاتها ولدموع عذريتها الأولى.

وإن نزغك نزغ وسعيت للتواصل رغما عنها تأتيك بلغة أخرى فتشعرك بأنـك تغتصبها وهـذه عملية غيرأخلاقية لاتليق بشـخص يريد أن يبني علاقـة مع امرأة عفيفـة بحجمها، إذ إنها تتألم وتنـزف بين يديك وأنت لايهمك سـوى أن تسـتخلص اللذة من هذا الألم، فتنهض دون أن ترضي لنفسك الاستمرار في سادية كهذه.

ولكن تقول لنفسـك: مـا هو السر الذي يقف خلـف كل هذا التأجيل؟!
فترى أنك خلال هذا الانقطاع تنفتح على بناء علاقات حميمية مع الأشياء مـن حولك ، تبنـي علاقات صداقة مع الورود، مع النجـوم، مع الماء، مع كل الأشـخاص الذين تلتقيهم. إنك هنا تشـعر بثراء وامتلاء كل شيء من حولـك كنت تراه ولاتلتفـت إليه كما تتعلم من الأمـير الصغير الذي يأتي حتـى يفتح عينيك، ويفتح حواسـك على عناصر الحيـاة التي تراها، ولا تنظر إليها، تحس بها، ولاتعيشها.

ثم تقول لك: إن معرفتك لقوة سطوع الأشياء محدودة لأن عينك تنظر إلى ظاهرهــا نظر العين, وهي تحتــاج إلى أن ينظر قلبك أيضا إلى جوهرها نظر القلب لتكتمل المعرفة.

مع هــذه الرواية ندرك كم أننا خسرنا كثيرا مــع إنجازات هذا العصر، خسرنا كثيرا من المشــاعر وطاقات الصبر وإمكانية الاســتمتاع بالوقت والعمل وممارسة تفاصيل الحياة.

لقد بات الإنسان في هذا الوقت يحصل على كل شيء في لحظات معدودة، كل شيء بات يعزز ثقافة العجالة في نفســه، فهو إن أراد إرســال رسالة، يكــون له ذلك في لحظات ويتلقــى الإجابة عنها في تلك اللحظات, وإن أراد الســفر إلى أبعد بقعة في الأرض حدث ذلــك في وقت قصير, ثم إن أي حدث يقع في أي بقعة من العالم يراه حالاً بالصوت والصورة.

لاشك أن كل هذا التراكم إذا تركه الإنسان على سجيته ولم يتحكم فيه, يولّــد حالة العجالــة الدائمة في ذاته ويعززها، فيكــون قلقا مضطربا، يشــعر بأنه يركض طوال الوقت حتى وهو نائــم في سريره، يركض دون أن يصــل إلى حد يقول فيه: هاقــد وصلت، لأنه كلما يركض تأخذ الطريق أمامه مسافات أطول.

وهذا يأتي على مختلف جوانب حياته وسلوكياته مع نفسه ومع الآخرين.

فنرى شــخصاً مايزال يحط على سطح الجامعة ويستعد للطيران للتو نحو فضاء الحياة يريد أن يكون نجما مشهورا، وزوجا لأجمل امرأة، وأبا لســتة أولاد، ومالكا لبيت وسيارة ورصيد في البنك، ويتمتع بكل منجزات

العــصر في ســنة واحدة ، فإن أجرى اتصالا مع شــخص يبعــد عنه آلاف الأميال ومصادفة لو أن الاتصال الأول لم يتم بنجاح, لايتردد من أن يحطم الجهاز المحمول ويفقد أعصابه لأن ذلك تأخر كثيرا، وإن أراد أن يدخل إلى شبكة الإنترنت واستغرق دخوله خمس دقائق، يفقد أعصابه من العجالة وكأنه ينتظر منذ سنة.

كنا ننتظر شــهراً حتى نكتب رســالة ونضعها في يــد الحبيبة وننتظر شهرا حتى يأتينا الجواب, وكنا نمضي في السفر يومين متتاليين في حافلات معدومة من كل وسائل التهوية في عز الصيف حتى نصل العاصمة, وكان يشــاركنا الركوب: الماعز, والغنم, وديك الحبــش, وتمتلئ الحافلة بغيوم من دخان السجائر، والسعال الحاد، والشتائم، والقهقهات المرتفعة.

كنا ننتظــر يومين لتصلنا صحف العاصمة, وأحياناً كنا ننتظر ســبع ســاعات متواصلة حتى نتمكن من الاتصال بمدينة مجاورة لايســتغرق الوصول إليها ســبع ساعات لأننا كنا نسجل على المكالمة بواسطة البريد، وكان المرء ينتظر خمس عشرة ســنة حتى يأتي دوره للحصول على خط هاتفي فيقيم عرسا بتلك المناسبة السعيدة التي يحسده عليها الآخرون.

هذه الرواية تنبه الإنســان ليتحكم في ثــورة التقنيات العالية التي حلت عليه فجأة ويكون هو قائدها ومهيمنا عليها، ودوما يمنح لنفسه هامشا مــن الصبر حتى يبقى متوازنا ومســتمتعا بهذه المنجــزات ومتذوقا لقوة عظمتها دون أن تفقده توازنه الطبيعي الذي نما عليه لحظة بلحظة. وهو عند ذاك يشعر بأنه هو الذي يملك، وهو الذي يقود، وهو الذي يقرر.

عندهــا لا يجــد وبالاً في أمره من أن يكتب رســالة بخط اليد ويرســلها عبر البريد العادي رغم توافر كل وســائل السرعة الأخرى ولو مرة واحدة في الشــهر, يمكن أن يســافر عبر البر أو البحر إلى إحدى الدول رغم وجود وسائط نقل أسرع، يمكن أن يمشي على قدميه ساعتين وسط المدينة وهو يشتري حاجاته رغم وجود سيارة لديه, يمكن أن يبرك على رصيف فيأكل صندويشــة فلافل, ولا ينسى أن ينظر بقلبــه إلى العصفور وهو يطير, إلى الزهرة وهي تتفتح, إليه وهو يستيقظ للتو من نوم عميق.

طفولة الإنسان مثل طفولة الأشياء هي التي تضفي عليه براءة ذمته وأصالتــه، وهو بهــذه الطفولة يمتلك العالم كله من خــلال امتلاك وردة واحدة من كل هذا العالم.

إن القصة الطفلية المتمكنة، هي تلك القصة التي تجعل الطفل يضحك تارة، ويحزن أخرى، يتأمل تارة، ويتخيّل تارة، وبعد أن يفرغ منها، تترك في مخيلته آثار أفكارها وأحداثها.

عبد الباقي يوسف

- مواليد مدينة الحسكة - سوريا 1964
- روائي وقاص
- عضو اتحاد الكتاب العرب
- عضو جمعية القصة والرواية السورية
- عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب
- أصدر العديد من الأعمال الروائية والقصصية والبحوث منها:

1 - سيمفونية الصمت - قصص - دار المجد - دمشق 1989
2 - الحب في دائرة العبث - قصص - دار المجد - دمشق 1991
3 - طقوس الذكرى - قصص - مجلة الثقافة - دمشق 1992
4 - بروين - رواية - مركز رام - دمشق - 1997
5 - دين - رواية - دار الينابيع - دمشق 2004
6 - جسد وجسد - رواية - دار الينابيع - دمشق 2004
7 - كتاب الحب والخطيئة - قصص - مركز الإنماء الحضاري - حلب 2004
8 - فقه المعرفة - في جزأين - دار المنارة - بيروت 2004
9 - فقه المعرفة - الجزء الثالث / إسلام ومسلمون وفقهاء / - دار الرضوان- حلب 2004
10 - روهات - رواية - دار المنارة - بيروت 2006
11 - غيوم من الشرق - قصص - منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق 2006
12 - خلف الجدار - رواية - دار كنعان - دمشق 2007
13 - طريقة للحياة - قصص - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق 2007
14 - إمام الحكمة - رواية - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية -الكويت - 2010

- حصل على الكثير من الجوائز الأدبية تقديرا لإبداعاته.